كتب

يكتسب كتاب الباحث البوسني علاء الدين هوسيتش حول تاريخ الدفشرمة في بلاده أهمّية خاصة، لأنّ البوسنة كانت الخزّان الذي زوّد هذه المؤسسة بالشبّان المسيحيّين ولاحقاً المسلمين، ولأن الوثائق العثمانية التي اعتمدها بعيدة عمّا روّج له الرحّالة الأوروبيّون

مؤسسة الدفشرمة في البوسنة عبر الوثائق العثمانية

تأريخٌ أبعد من الصورة النمطية

محمد م. الأرناؤوط

صدر كتاب «الدفشرمة في البوسنة: حول تجنيد البوسنويّين في الانكشارية»، العام الماضي، أي في السنوات الثلاث الأخيرة التي تُصادف مئوية إلغاء السلطة العثمانية، وإعلان الجمهورية التركية، ومئوية «معاهدة لوزان» التي أقرّت الحدود الحالية للجمهورية، ومئوية إلغاء الخلافة العثمانية، وهو بذلك من الكتب القليلة التي تُفكّك الصورة السلبية النمطية للدولة العثمانية من خلال أهم مؤسساتها (الدفشرمة)، التي أفرزت النُّخبة العسكرية (الانكشارية)، والنخبة الإدارية للدولة العثمانية (الولاة والوزراء والصدور العِظام). وميزة هذا الكتاب الذي صدر عن «المعهد الشرقي» في سراييفو، أنه يشمل الخزّان الرئيسي للدفشرمة (البوسنة) الذي زوّد الدولة العثمانية بالنخبة الإدارية والعسكرية التي حكمت الدولة عدّة قرون بعد فتح القسطنطينية، وبالتحديد إلى إلغاء هذه المؤسسة في منتصف القرن السابع عشر. أما مؤلّف الكتاب علاء الدين هوسيتش فيمثّل ميزة أُخرى للكتاب لكونه راجَعَ ما كُتب عن هذا الموضوع في اللغات المختلفة، ولكنه اعتمد اعتماداً أساسياً على الوثائق العثمانية، وهو ما جعل منه اسماً معروفاً بعد المؤلّفات العديدة التي أصدرها حتى الآن. كان عبور قوات الإمارة العثمانية مضيقَ الدردنيل إلى البرّ الأوروبّي عام 1351م، وانتشارها السريع في البلقان واتخاذ أدرنة عاصمة لها في 1371م، قد جعل منها سلطنة جديدة غالبية أراضيها في البلقان وغالبية سكّانها من المسيحيّين. وفي هذه الظروف شهدت السلطنة العثمانية تحوّلاً تدريجياً باتجاه التخلُّص من الأرستقراطية أو النُّبَالة التركية، التي كانت قد ساهمت بدورها في تحول «إمارة عثمان» الصغيرة إلى «سلطنة عثمانية» واسعة. وهكذا لجأ السلاطين العثمانيّون، منذ عهد مراد الأول وحتى محمد الفاتح، إلى التخلّص التدريجي من الأرستقراطية أو النبالة التركية، وتشكيل نُخبة أو هيئة حاكمة جديدة تتولّى شؤون البلاط والإدارة والجيش والدولة. وهكذا باستثناء منصب السلطان نفسه، الذي بقي حكراً لآل عثمان، فإن كل الوظائف والمناصب الإدارية- العسكرية من أسفل الهرم (صغار المسؤولين وأفراد الانكشارية)، وإلى رأس الهرم (الصدر الأعظم) أصبحت في يد هذه النخبة أو الهيئة الحاكمة الجديدة التي تكوّنت بالتدريج خلال مئة سنة تقريباً.

أُطلق على المؤسسة الحاضنة لهذه النخبة العسكرية/ الإدارية اسم «الدفشرمة» (دوشيرمه في العثمانية)، من المصدر التركي دفشرمك، أي الاجتناء أو الاختيار، التي تَوّلت إرسال لجنة كلّ عدّة سنوات إلى أرياف البلقان ومُدنها لاختيار أولاد بالغين بمواصفات معيّنة وإرسالهم إلى البلاط في أدرنة، ثم لاحقاً إلى البلاط في إسطنبول، لفحصهم وفرزهم إلى قسمين: الأول يكتفي بدراسة إعدادية ثم يذهب إلى الخدمة العسكرية في الجيش الجديد (الانكشارية)، والثاني يذهب إلى مدرسة البلاط ويمكث سنوات في الدراسة ويصعد لاحقاً في الهرمية الإدارية - العسكرية وصولاً إلى منصب الصدر الأعظم. ويمثّل صدور هذا الكتاب عن الدفشرمة في البوسنة حدثاً عِلمياً، لأنّ ولاية البوسنة كانت الخزّان الرئيسي الذي زوّد هذه المؤسسة بالشبّان المسيحيّين في البداية، حين كان انتشار الإسلام في بداياته، ثم بالشبّان المُسلمين الذين أصبحوا يمثّلون الغالبية، ولأن الوثائق العثمانية التي اعتمد عليها المؤلّف تُقدّم صورة مختلفة عن هذه المؤسسة عمّا بدت في كتب الرحّالة والأدب، التي أصبحت لاحقاً مرجعاً لصورة سلبية جدّا كما يقول المؤلّف في مقدّمة الكتاب. وفي الحقيقة ينطلق المؤلّف في المقدّمة من أنّ صورة الحُكم العثماني في البلقان تبدو سلبية عامة، سواء في المجال الاقتصادي والاجتماعي أو الثقافي والحضاري، حتى إنه يُعتبر حكماً سيّئاً على الرغم من الإسهامات التي قدّمها نظام الحُكم الجديد في الحياة الاقتصادية والثقافية. وفي هذا السياق تبدو الدفشرمة، كغيرها من مؤسّسات الحُكم الجديد في البلقان، بصورة سلبية جدّاً، ولذلك كان الهدف من الدراسة عرض الهوّة الكبيرة بين الخطاب السائد في التاريخ المحلّي البلقاني وبين الواقع الممارس للدفشرمة عامة في البلقان وفي البوسنة خاصة. ويُوضّح المؤلّف هُنا أن الاستوغرافيا البلقانية اعتمدت طويلاً في تعريف الدفشرمة وتوضيحها على «المقاربة الرومانسية» التي رسَّخَتْها الكُتب المدرسية، بما في ذلك توصيفها كـ«خطف الأولاد» و«ضريبة الدم» إلخ، بينما التعبير العثماني «الدفشرمة» (اختيار الأولاد) لا علاقة له بالدّم. في الفصل الأول «الدفشرمة في الأدبيّات التاريخية»، يُشير المؤلف إلى أنّ هذه الممارسة تُعرف في اللغات البلقانية باسم «ضريبة الدم» باستثناء «الموسوعة الكرواتية» التي تذكرها باسمها التاريخي «الدفشرمة»، ويُعيد المؤلّف ذلك إلى أنّ المُقاربة لهذه الممارسة أُحادية النظرة ولا تستند إلى المصادر الأساسية لها. ويأخذ

بغالبية بلقانية

يختم الباحث البوسني علاء الدين هوسيتش كتابه «الدفشرمة في البوسنة: حول تجنيد البوسنويّين في الانكشارية»، بوثيقة عثمانية تعود للقرن السادس عشر، تُبيّن الاصول الإثنية لمجموعة ضمّت 52 شابّاً لمدرسة البلاط، حيث يتّضح انّ البوسنويّين والألبانيين شكّلوا 68 بالمئة، وجاء بعدهم المجريّون ثم الجورجيّون؛ أمّا الأتراك والأكراد والعرب واليهود فكانوا غير مشمولين بنظام الدفشرمة.

المؤلّف على الاستوغرافيا البلقانية أنها تعتمد على كتب الرحلات وعلى الروايات الشفوية وليس على المصادر، ومن ذلك أول كتاب صدر عن الدفشرمة في اللغة الصربية عام 1898 بعنوان «ضريبة الدم: إسهام في دراسة التاريخ الصربي» من تأليف يوفان توميتش. أما في الفصل الثاني «حول الدفشرمة عبر وجهات نظر مختلفة»، فيعود المؤلّف مرّة أُخرى إلى كُتب الرحلات التي ألّفها الأوربيّون الذين جالوا البلقان في طريقهم إلى إسطنبول وقيمة المعطيات التي توفّرها. فمع اعترافه بوجود «معطيات محدودة صحيحة لكن معظم ما ورد فيها غير موضوعية ومنحازة، وهي لا تنسجم مع الأحكام القانونية والمُمارسات المعروفة». والسبب في ذلك في ما نقله عن بيتر ماتكوفيتش مؤلّف كتاب «رحلات عبر شبه جزيرة البلقان في القرن السادس عشر» حيث يعترف صراحة بدافعه إلى وضع هذا الكتاب: «وصف حالة المسيحيّين في تركيا بأسوأ الأحوال، لعلّ ذلك يحرّك الحكّام المسيحيّين لطرد تركيا من البلاد المسيحية».

ومع استعراضه لعديد من كتب الرحلات، التي أصبحت «مرجعاً» لمن كتب لاحقاً عن الدفشرمة، لا يسعى المؤلّف بالطبع إلى تقديم صورة مثالية عن الدفشرمة، بل لدينا تحت العنوان الفرعي «إساءات خلال تجنيد أولاد الدفشرمة» كيف أنّ الوثائق العثمانية تحفل بتُهم تمسُّ كبار الشخصيات (القاضي، والقائد العسكري، والصوباشي، والموظّف، وناظر الوقف، وغيرهم) الذين كانوا يرتشون خلال اختيار أولاد الدفشرمة، وهي الحالات التي زادت في نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر لأجل «إدخال المسلمين» في قوائم الشباب الذين تمّ اختيارهم للدفشرمة». وبسبب ذلك حاول السلطان مراد الرابع (1623 - 1640) إصلاح مؤسسة الدفشرمة، وحتى أصبحت هناك متابعة سرّية لعملية اختيار أولاد الدفشرمة. في الفصل الثالث «تعاقب التجنيد»، يعود المؤلّف ثانية إلى كتب الرحلات التي تناولت تعاقُب عمليات اختيار الشباب للدفشرمة»، حيث يرد في بعضها أنها كانت تتمّ كلّ سنة أو كلّ خمس أو سبع سنوات. ويوضّح المؤلّف هُنا أنه لا يوجد في قانون الانكشارية ذِكرٌ لذلك، بل تُرك الأمر على حسب الحاجة، كما أنه يُشكّك في بعض ما ورد عن الأعداد المختارة من الشباب للدفشرمة في بعض المصادر العثمانية، حيث ورد في «مجموعة فريدون بك» أنه خلال 1515 - 1616م، جُمع ألف شابّ من البوسنة والهرسك للدفشرمة، بينما تُوضّح الوثائق العثمانية أنه خلال القرن السابع عشر جُمع ألفان وستّون شاباً من كلّ ولايات البلقان للدفشرمة.

وبحسب الوثائق العثمانية يبدو أنه لم يكن هناك انتظام في اختيار الأقضية أو الولايات، كما هو الأمر في سنة 1610، حيث صدر الأمر بجمع الشبّان للدفشرمة من قضاءي إيبك وولجترن فقط اللذين يتبعان حالياً كوسوفو.

وفي الفصل الرابع «من ممارسات التجنيد للدفشرمة في البوسنة»، يُفنّد المؤلّف ما يرد في كُتب الرحلات من أنّ حملات التجنيد للدفشرمة كانت تشمل شابّاً من كلّ خمسة شبّان أو أكثر، على حين أنّ الوثائق العثمانية كانت تركّز على ألا يكون الشابّ وحيداً لأبويه مع مراعاة الشروط الجسدية المناسبة للخدمة في الانكشارية. وعلى حين أن كتب الرحلات توحي بتجنيد أعداد كبيرة من الشبّان يبرز المؤلّف أنّ حملة 1494م لم تشمل سوى ثمانية وثلاثين شاباً من كلّ الهرسك. ويستند المؤلّف هنا على الوثائق العثمانية التي تتضمّن قوائم الشبّان المُجنّدين التي تُبيّن أسماءهم وأعمارهم أنّهم بين الثانية عشرة والخامسة عشر عاماً، وهي بذلك تنسف ما يردُ في كتب الرحلات التي تورد أن أعمار الأولاد المجنّدين للدفشرمة كانت بين السابعة والثماني سنوات. ومع انتشار الإسلام في البوسنة أصبح من حقّ شبّان المسلمين أيضاً الانضمام إلى الدفشرمة، بعد أن رأوا بعض مواطنيهم وصلوا إلى أعلى الهرمية العثمانية، وتحوّلت البوسنة في عهد السلطان سليمان القانوني (1520 - 1566) إلى الخزّان الرئيس للدفشرمة حيث أصبحت البوسنة وحدها تزوّد الدفشرمة بـ27% من شبّان البلقان. ومن ناحية أُخرى يُبيّن المؤلّف أنّ اختيار الشبّان للدفشرمة لم يكن يقتصر على الريف، كما يرد في كتُب الرحلات، بل أصبح يشمل المدن أيضاً حتى وصلت نسبة المجنّدين من المدن إلى 27% في القرن السابع عشر. أما في الفصل الخامس «المسيحيّون في التجنيد للدفشرمة» فيُوضّح المؤلّف أنّ اختيار الأولاد للدفشرمة كان يشمل في البداية المسيحيّين فقط لأن عدد المسلمين كان قليلاً مع بداية انتشار الإسلام هناك. ولكن مع وصول بوسنويّين إلى منصب الصدر الأعظم مثل هرسكلي أحمد باشا وعتيق علي باشا لم يعد الانضمام إلى الدفشرمة «امتيازاً» للمسيحيّين فقط، بل زاد إقبال أولاد المسلمين على الالتحاق بالدفشرمة حتى أصبحت نسبة المسلمين هي الغالبية في مطلع القرن السابع عشر، بينما تدنّت نسبة المسيحيّين إلى ما دون العشرين في المئة، وهو ما كان ينسجم مع تحوّل المسلمين إلى أغلبية السكّان في البوسنة. في الفصل السادس والأخير «حول مسائل أُخرى للتجنيد في الدفشرمة بالبوسنة» يُبيّن المؤلّف عدم صحة ما يرد في كتب الرحلات عن تجنيد واسع للأولاد للدفشرمة . ففي آخر دفعة لتجنيد أولاد الدفشرمة في نهاية القرن الخامس عشر نجد أن العدد الإجمالي للأولاد الذي اختِيروا من سنجق كبير كسنجق شكودرا (كان يضمّ جنوب الجبل الأسود وغرب كوسوفو وشمال ألبانيا) لم يتعدّ ثمانية وأربعين شخصاً بمعدّل اثنين من كلّ قرية. ومن هؤلاء كان لدينا شقيقان علي (15 سنة) ومحمد (16 سنة) أبناء غازي ومرجانة. وحول ذلك يُوضّح المؤلّف أنّ بعض القوانين والفرمانات السلطانية كانت تُتيح للأخوين أن ينضمّا إلى الدفشرمة إذا كانا يرغبان في ذلك. ولدينا من ذلك حالة الأخوين دللي خسروف باشا (1495 - 1544) ولالا مصطفى باشا (1500 - 1580) من البوسنة، اللذين صعدا في الهرمية العثمانية وأصبحا واليَين لدمشق وحلب حيث بنيا الكثير من المنشآت العمرانية.

(كاتب وأكاديمي كوسوفي سوري)

علاء الدين هوسيتش

أفرزت الدفشرمة نخبة الدولة الإدارية ولم تقتصر على العسكر

النص الكامل
على الموقع الإلكتروني

نظرة أولى

يُحاول الباحث السوري جاد الكريم الجباعي، في دراسته «**المجتمع المدني اليوم**»، الصادرة عن «ميسلون للثقافة والترجمة والنشر»، أن يشتقّ مفهوم المجتمع المدني من تعيُّناته المختلفة، بغية الوقوف على إمكانات تشكُّله في البلدان المتأخّرة، وعمليات إعادة إنتاجه في البلدان المتقدّمة، وفهم الظواهر الاجتماعية والثقافية والسياسية ومنظومات القيم، ونقدها. كذلك يقف الباحث عند مفاهيم: الملكية الخاصة، وتقسيم العمل، والتبادل المتكافئ أو اللامتكافئ في التنظيم الاجتماعي - السياسي، قارئاً دورها في إنتاج السلطة وتعيين مبادئها وأشكال ممارستها.

عن «المركز القومي للترجمة» صدرت الطبعة العربية من كتاب «**مصر في العقد الأخير المديد عن القرن التاسع عشر: هموم استعماري ومقاومة باطنة**» للباحثَين مارلين بوث وأنتوني جورمان، من «جامعة إدنبره»، والتي أنجزتها المترجِمة سارة عناني. يُقدّم الكتاب إطلالة واسعة على أحداث العقد الأخير من القرن التاسع عشر في مصر، الذي تعامل معه الباحثون بوصفه مرحلة اجترار للهزيمة أمام الإنكليز وإعلان استعمار البلاد. عن طريق دراسة التحوّلات السكّانية والاجتماعية يُثبت الباحثان مدى حيوية هذا العقد، وتمهيده الطريق لبروز الوعي العمّالي في القرن العشرين.

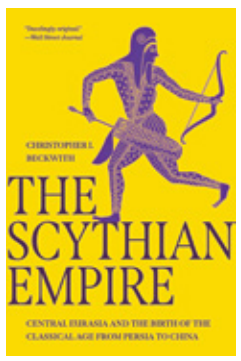

«**الإمبراطورية السكيثية: أوراسيا الوسطى وولادة العصر الكلاسيكي من بلاد فارس إلى الصين**»، عنوان الكتاب الذي صدر عن «منشورات جامعة برينستون» للباحث الأميركي كريستوفر آي. بيكويث. يعود الكتاب إلى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن السابع قبل الميلاد، حين غزا المحاربون السكيثيون معظم القارّة الأوراسية الشاسعة وأنشأوا فيها إمبراطورية أحدثت نهضة حضارية كبرى، سواء في ما يخصّ صناعة المنسوجات والأسلحة وتشكيل المعادن والحِرف اليدوية، أو ما يتعلّق بالتنظيم السياسي والمعتقدات الفلسفية، مثل البوذية، والزرادشتية، واللاوتسية، وغيرها.

صدرت عن «الآن ناشرون وموزّعون» نسخة من «**ديوان الصبابة**» لشهاب الدّين أحمد بن أبي حَجَلة التّلمساني المغربيّ، بتحقيق وتقديم خالد الجبر وأحمد الشّيخ. يعد الكتاب من أبرز مصادر الأدب العربي في موضوع العِشق، وهو تتويج لمؤلفات سبقَتْه منذ خصّص ابن قتيبة الدّينوري الجزء الرّابع من «عيون الأخبار» للمرأة، وحشدَ فيه أشعاراً طريفة في العشق والغرام، حيث جمع التلمساني، الذي عاش خلال القرن الرابع عشر الميلادي، قصائد وحكايات العشّاق بين دفّتي الديوان، وقسّم هذه النصوص بحسب شخصيات العاشقين الذين كتبوا عنهم من الشعراء والحُكماء.

«**شعر، موسيقى، ومعارض**» عنوان كتاب عبد الكريم كاصد (1946) الصادر عن «لندن للطباعة والنشر»، وفيه يقدّم المترجِم والشاعر العراقي قراءته النقديّة الخاصة لأعمال مُبدعين وفنّانين عالميّين. ومن غلاف الكتاب نقرأ: «آلهة مُدن غرقى، وآشوريّون، وفنّانون: جياكوميتي، موديلياني، سيزان، كاندنسكي، وآخرون. كلّهم يلتقون هُنا بمدنهم الغرقى، أو الضائعة، أو القادمة، أو معارضهم، وقصائدهم المنسيّة والحاضرة، في هذا الكتاب المتحف الآخر... الكتاب الذي تُزيّنه لوحاتهم، وقصائدهم، ويُضيئه عبورهم الدائم الهارب كظلالهم المُقيمة أبداً».

صدر، عن «دار الرافدين»، كتاب «**السوق السوداء للدبلوماسية: عوالم القنوات الخلفية في السياسة الخارجية**» للباحث العراقي ياسر عبد الحسين. يقف الكتاب عند مفاوضات «القنوات الخلفية»، سواء تلك التي مارسها رجال الدبلوماسية، أو التي شغلها رجال الأعمال لإيجاد وساطات لبدء الحوار، والتي كانت الأداة الأنجع لحلّ الكثير من المشكلات الدولية، موضّحاً أهمية استخدام القنوات الخلفية في الوصول إلى الحلول الدبلوماسية المطلوبة بين مختلف الفواعل الدولية، وكذلك العمل على تجاوز حالة القطيعة والانسداد السياسي في العلاقات الثنائية بين الدول.

عن جمعيّة «Femmes de double Culture» في باريس، صدرت طبعة جديدة من رواية «**غادة الزاهرة**» أو (حُسن العواقب) للكاتبة اللبنانية زينب فواز (1844 - 1914) بتحقيق وتقديم فاطمة الخواجا. يُعدّ العمل أول رواية في الأدب العربي، كُتبت عام 1899؛ أي قبل نحو خمسة عشر عاماً من صدور رواية «زينب» لمحمد حسين هيكل، وتستند إلى أحداث حقيقية، حيث تستعرض حياة زعماء منطقة تبنين، مسقط رأس الكاتبة، وتسلط الضوء على تقاليد بعض عشائر جبل عامل في القرن التاسع عشر، وخاصة الصراع بين الأميرَين وأبناء العمومة تامر وشكيب، والمؤامرات التي دبّرها الأول ضد الثاني.

يُمكن لمُراسلات الشاعر الفرنسي شارل بودلير (1821 - 1867)، التي صدر الجزء الثاني منها عن «دار الجمل»، بترجمة سحر ستّالة، ومراجعة صالح الأشمر، تحت عنوان «**الرسائل: (1860 - 1866)**»، أن تُقرأ على أنّها «كبش فداء» لتعاسات كلّ الشعراء، فضلاً عن كونها تُمثّل مأساة كاتبها الشخصية. إنها ليست مجرّد «مُراسلات» بالمعنى الشائع للكلمة، فمن يقرأها يدرك تماماً أنّها عملٌ أدبي، عملٌ تتحوّل فيه حياة ما إلى قدر، ومن خلالها يُمكن إعادة كتابة التاريخ، وتصوّر ما كانت ستكون عليه حياة صاحبها، والعصر الذي عاش فيه.